{لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}

عبد الرحمان السالمي

تضع الآيةُ الكريمة منهجاً للتغيير يقوم على عدة ثوابت وضوابط لدعم الفكرة (فكرة الهداية) وتسديد المسار (خشية الوقوع في الضلالة).

الأمر الأول: أنّ هناك مساراتٍ إنسانيةً متعددة تختلفُ في قُربها أو بُعدها عن بعضها، بيد أنّ طرفيها النقيضين هما: الهداية والضلال. الهداية: تعني اكتشاف السّبل السليمة للسير عليها فكراً وقولاً وعملاً، والضلالُ: يعني عكسَ ذلك، أي الانحراف عن نهج الحقّ ومسلكه. والتعرفُ على سلامة هذا النهج أو ذاك ليس تحكّميا أو عشوائياً، بل هو يستند إلى أساسين اثنين: العقل والوحي. عن الأساس الأول تحدثت آيةٌ سابقةٌ في سورة المائدة نفسها عندما أنكرت على المدعوّين للهداية احتجاجهم لعدم الإقبال على التغيير بالقول: (حَسْبُنا ما وجدْنا عليه آباءَنا)؛ والتعقيبُ من الوحي الإلهي على ذلك: (أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون). فالتقليدُ والاعتيادُ كلاهما لا يسوّغان الإصرار على طريقةٍ معيَّنةٍ لا يؤيدها العقلُ ولا يدعمُها المنطق. أما الركنُ الآخرُ لطريق الهداية وهو الوحي الإلهي المُدْرَكُ بالعقل فواردٌ في مئاتِ الآيات القرآنية، ومن ذلك ما ورد في سورة المائدة أيضاً: (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإنْ توليتُم فاعلموا أنما على رسولِنا البلاغ المُبين). وهكذا فالثابتُ الأولُ والركنُ الركين أنّ الحياة الإنسانية ليست عابثة ولا قليلة الجدوى، وأنها دارُ تكليفٍ، وفيها الصلاحُ والطلاح، وفيها الهدايةُ والضلالة، وأنّ على الإنسان أن يختار بين نهجين أساسيَّين عقلاً ووحياً.

والأمر الثاني: أنّ اختيار هذا النهج أو ذاك مسؤوليةٌ فرديةٌ بالدرجة الأولى: (عليكم أنفسَكُم). وفي الآية السالفة الذكر (واحذروا، فإن توليتُم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المُبين). فالمدعوّ مُطالبٌ بالحذر والتنبُّه لأنّ المسؤولية مسؤوليته، والعمل أو رفضه همّه وحده، إذ إنّ مقتضى التكليف حرية الاختيار من جهة، ووجهه الآخر: الانفراد بالمسؤولية. وهذا معنى إنكار القرآن الكريم وروح الإسلام للتقليد (أي تحميل المسؤولية عن النهج للغير مثل الآباء أو الرؤساء أو الظروف أو الأشياء). وهذا من ناحيةٍ أخرى معنى اعتبار الرسول (ص) مجرَّد حامل رسالةٍ، أي اعتباره رسولاً بالمتبادر من لفظ الكلمة، أي أنه لا يتجاوزُ في دعوته حدودَ حامل الرسالة من ملك الملوك إلى أيّ إنسانٍ مسؤولٍ أو مكلَّف: (وهديناه النجدين)، وإن كان مسؤولاً: (ويَحيَى من حيَّ عن بيِّنة)، (ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أُخرى)، (ومن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يرَه). فلكي يُجازَى الخيِّر ويُعاقبَ المخطئُ، لا بد أن يكونَ الاختيارُ خالصاً، فتكونَ المسؤولية خالصة.

والأمر الثالث: وهو يدخُلُ في الضوابط أكثر من دخوله في الثوابت، وهو قوله تعالى:

(لا- يضركم من ضل إذا اهتديتم). هنا المُخاطبُ ليس الأفراد فقط؛ بل جماعة المؤمنين أيضاً، وربما الجماعة أكثر من الأفراد. فالمؤمنون مثل رسولهم مكلَّفون بالدعوة. لكنْ كما تأسَّس اهتداءُ كل منهم على الاختيار الفرديّ الحُرّ، فكذلك يكونُ عليهم أن يحترموا حرية الآخَر أو الآخَرين، فلا يتجاوزوا حدودَ طلب المعروف والنهي عن المنكر، والبيان بالعقل وبمنطق الوحي إلى أين تصير الأمور، وما هي عواقبُ هذا النهج أو ذاك: فلا- إكراهَ في الدين؛ لأنه (قد تبين الرشدُ من الغَيّ)، والبيانُ بالخطاب الإلهي الذي يستقبلُهُ العقل فيتقبلُه صاحبُهُ أو لا- يتقبلُه، وتترتبُ على ذلك نتائجُ هو مسؤولٌ عنها أمام الله -عزَّوجلّ- وليس أمام المؤمنين أو الزملاء أو الأصدقاء الذين دَعَوهُ ونصحوهُ فلم يقبل استناداً إلى حريته أو إلى إدراكه لمصالحه التي ما استطاع تجاوُزَها من أجل القضية الكبرى، وهكذا فإذا كان الثابتُ الأول: في العالم الإنساني وجود الخير والشر، والحق والباطل، والهداية والضلال، وإذا كان الثابت الثاني: اختيار الإنسان ومن ثم مسؤولية عن هذا الاختيار أو ذاك؛ فإنّ الثابت الثالث، أو الضابط الأول: عدم الإكراه، إذ كيف يستقيم إيمانٌ مع إكراه، وكيف تستقيمُ مسؤوليةٌ مع انعدام حرية الاختيار.

وقد لفت مفسِّرو القرآن الكريم _وعلى رأسهم الطبري _ إلى أنّ في آيات الدعوة، التي تؤكّد أنَّه ما على الرسول إلاّ البلاغ المُبين، وأنه ليس بمسيطر، وأنه ليس من حقّه أن يُكرهَ الناس حتى يكونوا مؤمنين.... لفتوا إلى أنّ فيها ملحظاً مفادُهُ اعتقادُ كثيرٍ من الدُعاة أنهم إن لم يتمكنوا من نشر ما يرونه حقاً هنا أو هناك، يكونون مقصِّرين في حق الدعوة أو اعتقادهم أنّ في بقاء بعض "المخالفين" في مجتمعاتهم ما يهمُ تلك المجتمعات بالسوء والضرر. والآيةُ تُجيبُ على ذلك بوضوح: (لا- يضركم من ضل إذ اهتديتم). أما مسؤوليتكم في الدعوة للتغيير فلها حدودٌ وضوابط: الدعوة المُخلصة والمُبينة، فلا تستطيعون أن تتوقفوا عن الدعوة للخيرِ وإلاّ- كنتم مهملين فعلاً- أو مقصِّرين-ومن ضمن الدعوة: القدوة الصالحة؛ إذ تنتهي الآية الكريمة بالقول: (بما كنتم تعملون) أي أنَّ العبرة بالعمل الورع والنافع الذي تملكون به سبيل النجاة، وتستطيعون اجتذابَ الناس أحياناً دونما دعوةٍ صريحةٍ للإيمان والنهج الصالح. وهكذا فإذا تجاوز الأمر الدعوةَ والقدوة، إلى الغلظة والإكراه؛ فالمؤكّد أن ينقلب إلى النقيض، فيصبح من دعوته الضرر على الإسلام والمسلمين، كما هو الأمر مع الكثير من ظواهر الغُلُوّ والتطرف في التاريخ وفي الحاضر. ومن ضمنِ الدعوة المُبينة والمخلصة، تجنُّبُ الفتنة التي تحدثت عنها الآية الكريمة: (واتقوا فتنة لا تُصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة)؛ والتي استشهد بها رسول الله (ص) في مَثَل السفينة المشهود. إذ الفتنة هنا أمورٌ ضارَّة قولاً أو عملاً يقومُ بها فردٌ أو جماعة، وهي لا تتعلق بالإيمان والكفر، إذ إنّ الآية تصفُ هؤلاء بأنهم "منكم"؛ وبذلك تصبح المسؤولية مسؤولية السلطة القائمة في المجتمع، ويصبحُ التحذير موجَّهاً إلى الجماعة بأنْ تشعر بالمسؤولية عن المصالح العامة فتنصح وتنهى، ولا- تشارك مهما بلغت الإغراءات أو الدوافع، وإن لم يفد ذلك كلُّه يصبحُ منعُ الضرر من مسؤوليات السلطة، ويكونُ الأفرادُ قد أدَّوا ما عليهم. فكما أنه ليس من حقهم ممارسة العنف الكلامي أو الفعلي ضدّ "غير

المؤمنين"، كذلك ليس من حقهم ممارسة هذا العنف ضدّ مرتكبي الأخطاء والجرائم؛ وإنما يبقى ذلك عمل السلطة، التي تضبط الأمور، وإلّا حدثت الفتنة فعلاً بتدخُّل فئةٍ لمنع فئةٍ أخرى من هذا التصرف أو ذلك أو هذا التجاوز أو ذاك.

والأمر الرابع: التزام نهج المسالمة والمصالح والتعارف؛ ليس في الدعوة إلى الإسلام فقط؛ بل في الحياة كلها مجملاتها وتفصيلاتها. فالله -سبحانه وتعالى- يقول في خاتمة الآية: (إلى الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون)، وهكذا فالحَكَمُ -سبحانه وتعالى-، والذي أرسل لنا رُسُلاً للتغيير باتجاه الحقّ والصواب، هو الضمانُ لانتصار هذا النهج دونما حاجةٍ لمشاركة الناس أو اتبّاع سيرة التنافُر بحجة أنّ المرءَ على الحقّ، أو أنّ المصلحة تُحفظُ بذلك. فالدعوةُ بالحكمة والموعظة الحسنة، وكذلك الجدال بالتي هي أحسن. لكنْ ليس هذا فقط؛ بلى الحياةُ الإنسانية كلُّها قائمةٌ على نهج التعارُف. إذ هؤلاء البشر الذين (لا يزالون مختلفين)، مأمورونَ بسبب اختلافهم (ذكراً وأنثى وشعوباً وقبائل): بالتعارف أي أن ينفتح كلٌّ منهم على الآخر، وأن يحفظ مصالحَهُ بالحُسنى وبالعمل الصالح، ليكونَ من أولئك (الذين يمشون على الأرض هَوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما).

على أنّ الحياة المؤمنة والوادعة، ليست حياةً مستسلمةً أو متنازلةً؛ بل إنها الإنفاذُ المُلائمُ لنهجِ الهداية. فكما لا يصحُّ الإقدامُ على العنف والإكراه من أجل تغيير الآخرين؛ لا يصحُّ أيضاً التخلّي عن الحقّ والخير تجنباً للخصومات. فعلى المرء أن يظلّ برَّا بوالديه حتى لو أرادا منه الشرك، دون أن يعني ذلك ترك طريق الحقّ والهداية. فالمؤمن تغييريٌّ، والمؤمنُ سائرٌ على طريق الإنجاز البنّاء والمستقبلي. وهو قويٌّ لأنه كذلك، وليس لأنه يصنعُ العنف أو يخيفُ به.

إنّ نهج (لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم) هو نهج التغيير والمسؤولية. نهج التصميم على المضيّ في طريق الحقّ، أيا تكن الصعوبات، ودونما مُعالاةٍ أو تجاوُز على حريات الآخرين وحقوقهم واختياراتهم.